

## المبحث الأول

### التعريف بجماعة إخوان الصفاء وخلان الوفاء ورسائلهم

يلفُّ الغموض كثيرًا من النواحي المتعلقة بـ(جماعة إخوان الصفاء وخلان الوفاء)، ما حدا بباحثٍ عربي معاصر مثل حسين مروة في كتابه: (النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية)، أن يتهيب الولوج إلى العوالم السرية لهذه الجماعة. ومن هنا، فإننا نسعى في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى تقديم نبذة تاريخية موجزة لإخوان الصفاء ورسائلهم، دون فتح جميع الملفات المتعلقة بهذه الجماعة، أو التوغل في القضايا الشائكة المحيطة بهم، فالهدف الرئيس من هذا الفصل هو فكّ شفرات جماعة إخوان الصفاء ورسائلهم ورسم صورة ذهنية مختصرة عنهم عند المتلقي، بما يسهم في فهم الظروف التاريخية والفكرية للحركة التي أنتجت المدونة التي نروم الاشتغال عليها. أولاً: التعريف بإخوان الصفاء وخلان الوفاء: هويتهم المذهبية:

إخوان الصفاء -كما يصفهم أبو حيان التوحيدي(ت414هـ) في الليلة السابعة عشرة من كتابه:(الإمتاع والمؤانسة)-هم: «عصابة تألفت بالعشرة، وتصافت بالصدافة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات؛ ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال».

يكشف النص السابق عن النهج الخاص الذي اختطه إخوان الصفاء فيما بينهم، كما أنه يقدم للمتلقي، مفتاحاً للشفرة المذهبية التي ظلت مثار خلاف بين الباحثين والمؤرخين، في تعيين المذهب الذي تبنته جماعة إخوان الصفاء، بين أن يكونوا معتزلة، أو شيعة، أو اعتنقوا الفلسفة الهرمسية الغنوصية، فعبارة (وضعوا بينهم مذهباً)، تدل على أن لإخوان الصفاء مذهباً خاصاً يختلف عن سائر المذاهب الأخرى التي نشأت وتبلورت في ذلك العصر أو قبله. والدليل على ذلك، نص الحديث الذي ورد في الرسالة الرابعة من العلوم الناموسية والشريعة حين قالوا: «وبالجملة ينبغي لإخواننا، أيدهم الله تعالى، أن لا يعادوا علمًا من العلوم، أو يهجروا كتابًا من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها». وعليه فإني أميل إلى الرأي القائل، بأن مذهب إخوان الصفاء قائم على «استراتيجية انفتاحية»، قوامها «التسامح الديني والتعددية المذهبية»، بحيث يستوعب كافة الأديان

والثقافات والشرائع، ضمن نسيح واحد، بعيدا عن التعالي المذهبي، والعصبيات الطائفية والإثنية، أو بحسب تعبير رشيد الخيون كان «مذهبهم اللامذهبية».

لم يقتصر الخلاف بين الباحثين والمؤرخين على تحديد الهوية المذهبية لإخوان الصفاء، بل تعدى ذلك إلى كافة القضايا المتعلقة بهذه الجماعة السرية؛ وذلك بسبب الغموض والضبابية اللذين يكتنفان الظروف المحيطة بها. وهذا ما أدى إلى تشعب الآراء، وتعدد وجهات النظر، في تحديد تأريخ ظهور الجماعة، ومكان دعوتها السرية، وعدد المنتسبين لها، وأسماء أعضائها، وصولا إلى الرسائل التي وضعوها، وهوية مؤلفيها. ويبدو لي أن الخلاف الكبير الذي نشأ بين الباحثين في معظم تلك القضايا، مرده في الأساس إلى تبني بعض المستشرقين من أمثال لويس ماسينيون وبول كازانوف وبعض المفكرين العرب مثل محمد عابد الجابري وبعض الباحثين الإسماعيليين من أمثال عارف تامر ومصطفى غالب وفرهاد دفتري نسبة إخوان الصفاء إلى حركة باطنية تتبنى المذهب الشيعي الإسماعيلي، الأمر الذي وقف معه بعض المفكرين والباحثين العرب من أمثال عمر فروخ، وجورج طرابيشي، ومحمود عبد الرازق، ورشيد الخيون، موقفا معارضا تبنا فيه مسألة «نفي التسمعل» عن جماعة إخوان الصفاء.

تأريخ نشأة جماعة إخوان الصفاء:

يحكي جمال الدين القفطي (ت646هـ)، أن رواية أبي حيان التوحيدي عن إخوان الصفاء كانت «في حدود سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة»، وإذا صح هذا الأمر فإن النصف الثاني من القرن الرابع الهجري -كما يؤكد ذلك المستشرق ت. ج. دي بور- هو التأريخ المحتمل لظهور الجماعة. وهذا ما عليه معظم الباحثين، مستندين في ذلك إلى اللقاء المحتمل بين أبي حيان، وزيد بن رفاعة أحد أعضاء جماعة إخوان الصفاء. أما من ينسب إخوان الصفاء إلى الإسماعيلية فإنهم يرجعون تأريخ ظهورهم إلى «نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين».

مكان دعوتهم:

هنالك اتجاهان في تحديد البيئة المكانية التي انبثقت منها دعوة إخوان الصفاء، وضمت مجالسهم: الاتجاه الأول: يستند إلى جواب أبي حيان التوحيدي للوزير ابن سعدان، حين سأل عن شخصية زيد بن رفاعة، فكان جوابه أنه «قد أقام بالبصرة زمانا طويلا، وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة». يقول يوحنا قمير: «أما النشأة في البصرة فلا نجادل فيها، أو نشك»، فالبصرة كانت مركزا حضاريا، ضم طوائف وإثنيات متعددة، ساهمت في تشكل مدارس علمية وجماعات فكرية.

الاتجاه الثاني: يرى أن مدينة سلمية بالشام كانت مركز نشاطهم الدعوي، وفيها تم تأليف رسائلهم الفلسفية، ولا يخفى أن أصحاب هذا الاتجاه يميلون إلى القول بأن إخوان الصفاء كانوا من أئمة الإسماعيلية المستورين فـ«اشترك العلويين وأهل الشام في بغض وكرهة الدولة العباسية، قد يكون دافعا لتشجيع أئمة الإسماعيلية على اتخاذ سلمية بالشام مركزا رئيسيا لدعوتهم السرية».

وعلى أية حال، فكلا الاتجاهين لا ينكران أن جماعة إخوان الصفاء كان لها «فروع في مختلف البلدان والأقاليم»، وأن دعوتهم لاقت صدى واسعا في كافة البلاد، بحيث وصل تأثيرهم العاصمة بغداد التي ضمت فرعا للجماعة كان منضويا تحت لوائها.

- المراجع والاحالات متوفرة في النص الكامل للكتاب.